

السميات التأويلية بين المثالية والدينامية

قراءة إستيمية نقدية

الأستاذ: غروسي قادة

أستاذ مساعد مكلف بالدروس (قسم 1)

قسم اللغة العربية وآدابها (جامعة سيدي بلعباس)
الجزائر

لننأى مطالبين في هذا الطرح بالتعقيب عن الأصول الفلسفية والمركزات المعرفية للنظرية التأويلية عبر مناهجها التاريخي والفلسفي، منذ التأويلات الرواقية الأولية وإلى حدود النقد الجديد، بقدر ما نحن ملزمون بضبط الآليات التأويلية بوصفها منهجا وعلميا يستقر من خلالها تحديد المعنى وفهم النص، صحيح إن التأويلات في أصولها التراثية الغربية هي فن تأويل النص القديم والعلم المساعد للأهوت التي كانت تطبق على النصوص المقدسة، وأساس الفيلولوجيا والدراسات الأدبية. لذا كانت أولى المساعي التي أرسنها التأويلات الغربية في تراجمها مع الفيلولوجيا هي استعادة الدلالات الأولى للآثار الأدبية والفنية.

إن التاريخ من منظور شلايرماخر لا يستطوع أن يحتفظ بدلالة النص، لذا تلقى بشير إلى استحضار الموقف الفيلولوجي الأكثر يقينية، وهو الموقف الذي يطابق بصراحة بين دلالة أثر ما التي استجيب لها وبين فهمه وإعادة بناء إنتاجه الأصلي مع استعادة قصد المؤلف الذي هو بمثابة الشرط الضروري والكمالي لتحديد معنى الأثر¹ وبهذا تقوم التأويلية على أساس أن النص يؤدي دور الوسيط اللغوي الذي ينقل معاني المؤلف وأفكاره إلى القارئ، أي أن التأويل لا يمتلك مقصدية النص ودلالته امتلاكها مطلقا، بقدر ما يبين لنا الوسائط والوسائل التي توجّهنا نحو الآليات التي تعيد إنتاج الدلالة.

أشار فرانسوا راسني إلى أن التأويل لم يحظ بانسجام في حقول اللسانيات والسمياتيات المحيطة، على غرار ما تلقى داخل رحاب اللسانيات التوليدية على يد نوام تشومسكي، وذلك حين ربط مفهوم التأويل بالجملة الغامضة التي تحتوي على أكثر من تأويل². وعليه يقترح تشومسكي في مؤلفه «البنية التركيبية»¹⁹⁵⁷، التركيز على قوة توليد البنات اللغوية عند البشر، والنتيجة عن المكوّن التركيبية الذي يسمح بإنتاج متواليات من الجمل النحوية، وهذا «إسناد التأويل الدلالي للبنات التي يولدها التركيب»³ إن هذا الإسناد التأويلي لدى تشومسكي هو إسناد تقني يسعى إلى بناء نظرية شكلية لا دلالية، حيث لم يقتصر مفهوم التأويل في هذا الموضوع إلا بموجب الاقتضاء تأويل نحوي لا تأويل دلالي.

يزداد إشكالية التأويل تعقيدا حين يستعصي راسني ذلك النقاش المعقد بين علم الدلالة التأويلي وعلم الدلالة التوليدي، حول مركزية البنية التركيبية، فبالنسبة لعلم الدلالة التأويلي فإن البنية التركيبية تعمل نقطة انطلاق التأويل الدلالي، في حين علم الدلالة التوليدي تجعل من هذه التمثيلات الدلالية مدخلا إلى المكوّن النحوي، وعلى هذا المنوال تلقى كانتز يحصر هذا الاختلاف فقطل في التوجه؛ فقواعد علم الدلالة التوليدي تعين علم التركيب (النحو) في المواضعة الدلالية. لا بإعادة إنتاج قواعد علم الدلالة التأويلي على

السيمياءات التأويلية بيت المثالية والدينامية - قراءة إستيمية نقدية-
أ. غروسي قادة
مستوى البنات التركيبية²، وهذا التأويل الدلالي المسند إلى البنات التركيبية كفيه أو يتم عبر مستويات البنات العميقة لا السطحية.

إذا كان مفهوم التأويل في رحاب اللسانيات التوليدية بمعناه التقني لدى تشومسكي لا يتفق هو الآخر عن نظرية كواين الذي يعتقد أن التأويل ليس إلا ترجمة لغة (صورية أو طليعية) إلى لغة أخرى، ذلك أن التمثيلات الدلالية التركيبية والفيلولوجية تستعمل اللغات الصورية في تمثيلات مختلفة، وهذا التأويل من منظوره هو بمعنى حصري، إذ يعمل على تحويل الدلالات الشكلية الوظيفية من علاقات ثابتة إلى علاقات متغيرة⁴ صحيح وإن بدأ لنا التأويل في أطره التقنية يحمل مفهوما دلاليا، فإن فرانسوا راسني ينتقد هذا التصور الذي أرسته اللسانيات التوليدية لدى تشومسكي إلى أن هذه الأخيرة:

- يؤدي بشكل تعسفي إلى حصر الدلالة في التمييز، أو تربط الدلالة بالتمييز، ولتكن من منظورنا أن الدلالة هي التي تحدد المرجع وليس العكس.

- اهتمامها المفرط بالجمال أو القضايا من المعنى للمتلقي إلى اللفظ، وإهمالها للفظ والقضايا النصية⁵.

إذا كان ي فرانسوا راسني يلخص أن السيمياءات واللسانيات المعاصرتين لم تقويا على بناء نظرية للتأويل، إنما يرجع ذلك إلى التداخل الإستيمية والمثالي حول هذه العلوم ذاتها، فإذا أنها على سبيل المثال إلى سيمياءات شالز سندريرس قد أفردت لمفهوم الموزون *Interprétant*، مكانا واسعا، بوصفه الحد الثالث داخل البناء الثلاثي للعلامة، ذلك أن العلامة هي للمثل *Représentament* يحيل إلى الموضوع *Objet*، عبر الموزون *Interprétant*، غير أن مفهوم الموزون ظل مرتبطا بالنظرية المرجعية. ويبدو أن مفهوم الموزون بهذه المرح غير قادر على بلورة نظرية للتأويل.

يمتد هذا الإشكال حتى داخل اللسانيات التي تلت بعد دو سوسير وبخاصة مع متصورات لويس بالمسليف الذي لم يشر مطلقا إلى إشكالية التأويل. حيث إن السيمياءات الهامسليفية في أبعادها الغائية التفسيرية اختارت لنفسها مبدأ المحايطة داخل شكلية مغلقة غير قابلة للاختزال كنسق مزدوج المستوى، ومن ثم بدأ التشكيك في فترة مفهوم الإحياء على خلق افتتاح في نسق مغلق، حيث لم تفلح إسهامات لويس بالمسليف في حسم مسألة انغلاق العلامة، بل الت إلى صيغ جبرية آية معقدة.

إن السيمياءات الغريمسية هي الأخرى اعتبرت الفعل التأويلي نموذجاً رئيساً يشغل على الكفاءة الإستيمية، غير أن ذلك لم يكن مرتبطاً ارتباطاً صريحاً بالنظرية التأويلية، بل اكتفى هذا التأويل بتحديد المعنى شكلاً هو معطى في حد ذاته، وقد أوماً إلى ذلك غريغاس في مدخله⁶ على أن المعنى يعيش مرهوناً بالانتقال للحايات من مستوى لآخر ومن لغة لأخرى، ولعل خاصية التأويل لا تكمن في الانتقال بين المستويات وبالتالي بين الممن والآخر.

إن هذا الانتقال الحايات «من منظور غريغاس» للمعنى عبر المستويات المختلفة، إنما هو في الحقيقة انتقال رياضي من البنية المنطقية الواصفة الأصلية من أجل الوصول إلى النص عبر سلسلة من التحولات

السيماليات التأويلية بيت المثالية والدينامية - قراءة إستيمية نقدية- أ. غروسي قادة
داخل المستويات المعنوية أو ما يصفه بـ(النموذج التكويني)⁷، ولعل هذا التصور سيميد طرح إشكالية الشروح
واللغة الواصفة التي تمثل هذه المستويات.

وأما احتدام هذا الموقف النقدي، فإن تبني بناء نظرية للتأويل من المنظور التوليدي أو السيميائي،
يعزبه فرانسوا راسني إلى ثلاثة نقاط رئيسة:

- الخاصية الاستنتاجية المحيطة(غريمانس وبالمسلف)
- الخاصية التوليدي ككون أن النص هو نقطة الوصول لعملية التوليد وليس نقطة
للتأويل(تشومسكي)
- الخاصية الصورية التي دفعت بأبالمسلف وتشومسكي إلى رفض علمنة الدلالة⁸.

وإذا كان التأويل في رحاب اللسانيات والسيماليات وتوجهاتهما البنوية لا زال مستعصيا، «ككون أن
التأويل لم يخرج من دائرة المعنى القابع داخل المستويات النصية في طابعه المنطقي الاستنتاجي، فإن التأويل
سيأخذ منحى آخر مع فلاسفة اللغة بدءا من هريديريك شلايرماخر وفطهم دلتاي وبول ريكور، غير أن ريكور
يعطي للتأويل معنى واسعا بوصفه النموذج «الأقوى للكشف عن معنى خفي داخل معنى جلي»⁹ عكس
الهرمونطقا التي تشتغل على مواجهة مختلف الاستعمالات المعنى المزدوج والوظائف المختلفة للتأويل داخل أنساق
أكثر اختلافا، كعلم الدلالة لدى اللسانيين، وعلم النفس والفنيومينولوجيا والتاريخ المقارن للأدبين، النقد
الأدبي¹⁰، إن هذا الانشغال التي تسعى إليه النظرية التأويلية مسمى تراحمي مع المنهج السيميائي الذي يعمل
على توحيد العلوم الإنسانية.

حاولا ككل من غريمانس وريكور تأسس التقريب بين التأويلات والسيماليات وذلك من خلال التقاطع
المعرفي والمنهجي بينهما وهذا حين يأخذان على عاتقهما - التأويلات والسيماليات - وبشكل خاص البعد
الخطابي للغة، أو ما يمكن الحديث عنه بالسيماليات الخطاب¹¹، على خلاف للمنطق واللسانيات التوليدية
التي تركز أبحاثهما حول الجملة والقضية والبني التركيبية بامتياز.

وبما ظل هذا التقارب المنهجي بين التأويلات والسيماليات تلقى هناك سجلا نقديا محتما بين
غريمانس وبول ريكور، حول قضية إنتاج المعنى، إذ يحصر غريمانس الفعل التأويلي للتلفظ داخل موضع
التلفظ ذاته¹²، أما بول ريكور فيرى «أن التأويل يأتي قبل المعنى، لأن هناك وجود العالم ثم الفهم ثم التأويل ثم
القول»¹³، وإذا كان المعنى في مساره الأنطولوجي سابق عن التأويل فإن غريمانس يرى أن التلفظ يتقدم المعنى،
في حين نجد ريكور يرى أن التلفظ يعقب المعنى.

ثم إن البحث عن إنتاجية المعنى في إطار المقاربات السيميائية التأويلية يختلف باختلاف التوجهات
المعرفية والنقدية، ولعل هذا الانتقاد الذي نصب على حضرة التأويل كان مرثه هو السعي وراء مرجعية النص
عبر معطيات لسانية وشروط إنتاجية جاهزة، على غرار السيميائية التي تتمثل في الفعل التلفظي وما يوافق
للمنطق الدلالي إن التأويلات في بعدها الدلالي لا تسعى للقبض على المعنى المتخفي بقدر ما تتيح لنا إمكانية

الكشف عن تعددية المعنى والسبيل والطرائق الخاصة. فللمعنى لا يأخذ بعده الوجودي إلا في إطاره المرجعي عبر المسارات التأويلية الممكنة.

لا تزال ثنائية الفهم والتفسير من وجهة نظر الفلسفة الفينومينولوجية نقطة صراع نقدي داخل النظرية التأويلية، حيث تعدّ محاولات شلايرماخر في وضع الأسس والقواعد التي تجنّب سوء الفهم كينة من لبنات التأويل وتلك التطلّعات من مقولة «يوجد التأويل حيثما يوجد سوء الفهم»³⁴ ويحصر شلايرماخر قواعد العملية التأويلية في خاصيتين، إذ تكمن الخاصة الأولى في الموهبة اللغوية والخاصية الثانية في قدرة النفاذ إلى الطبيعة البشرية، غير أن الموهبة اللغوية وحدها لا تكفي، لأنّ الإنسان لا يمكن أن يعرف الإطار اللامحدود للغة، «كما أن الموهبة في النفاذ إلى الطبيعة البشرية والبحوث لا تكفي لأنها مستحيلة الكمال لذلك لا بد من الاعتماد على الجانبين، ولا توجد قواعد لكييفية تحقيق ذلك»³⁵، وبالتالي تعمل هاتين الخاصيتين على توحيد بين ما هو موضوعي وتقصّد به اللغة بوصفه المشترك الذي يجعل عملية الفهم ممكنة، وبين ما هو ذاتي والذي يمكن في فكر المؤلف المتعظّر في استخدامه الخاص للغة.

إنّ المعيار الموضوعي لدى شلايرماخر هو أن القارئ يقوم بعملية إعادة بناء التاريخ الموضوعي للنص، ذلك أن المعرفة هي نتاج لغوي، كما أن هذا المعيار يكمن في إعادة بناء التنبؤ الموضوعي، وهو كفيّة تمثيل النص عبر اللغة، أما المعيار الذاتي فهو الآخر يكمن في إعادة البناء التاريخي للنص بشكل ملائمة، ككون أن النص نتاج نفسي، «كما يتّضح المعيار الذاتي في إعادة التنبؤ الذاتي بمعنى كفيّة تأثير عملية الكتابة في أفكار المؤلف الداخلية»³⁶. ويهذه الصياغة التأويلية التي تعدّ تجاوزاً للتصور الفيلولوجي لفهم النصوص يؤكّد شلايرماخر على أنّ عملية «الفهم لا ترتبط بإدراك الحقيقة التي تتلوي عليها تصريح أو تأكيد، بقدر ما يبحث عن الشروط الخاصة للكلمة في التعبير الذي بدوره هذا التأكيّد أو التصريح، بمعنى التمييز بين فهم محتوى الحقيقة وفهم المقاصد»³⁷.

وعلى أساس هذه المرافقة المنهجية تقوم تأويلية شلايرماخر على منهجين منهج قواعد اللغة، ومنهج التأويل النفسي، إذ يتمثّل المنهج اللغوي في فهم العناصر الجزئية داخل النص، بينما التأويل النفسي يستحضر السياق البيوغرافي، ويهنا التركيب محلّ المؤوّل معال المؤلف، ويعيش ذهنها التجارب والأفكار التي كانت سبباً في ميلاد النص، أو الأثر ليدرك لحظة انبثاق المعنى وتوجه القصد، ويسمّي شلايرماخر هذا الحلول بالفعل التكهني³⁸. ذلك أنّ مقصدية النص هي نسخ مقصدية المؤلف، فالقارئ أو المؤوّل ويوصفه مركزاً للعملية التأويلية ويقتل طاقته التنبؤية وموسوعته اللغوية والمعرفية يكون مؤهلاً لعملية الحلول التي تتحم أو تدمج القارئ والمؤلف معاً.

ويهذه المتصورات يكون شلايرماخر قد مهّد الطريق لفلسفة التأويل أمثال فاهام دالتي وهانز جورج غدامير ومارتن هايدغر، حيث تتمركز تأويلية دالتي على «التجربة المعاشة» والتي تتشكّل في جملة من الممارسات والمقاصد المتوجهة نحو الموضوع المعلى للوعي³⁹ وبالتالي العودة إلى الأشياء ذاتها كما هي معطاة في وعينا المباشر المحيط بخيراتها السابقة. بمعنى كيف نفهم ونفهم الوعي بالعالم بعيداً عن شكل واقعية ومثالية؟ أو بالأحرى، كيف نفهم الموضوع «كما يبدو في الخبرة المباشرة» أو كيف يكون الشيء في ذاته بالنسبة لي؟.

ومنه فالوعي إنما هو تصويب وهو صورة التمثيل، لكن هذا الوعي ليس هو الذي يكون المعنى، فلو أن الوعي الفردي كان هو الذي ينتج للمعنى لأصبح هذا المعنى جزئياً، وأصبح لكل فرد معانيته الخاصة²⁰، ولذا فالوعي بهذا الطرح ليس وعياً ذاتياً وإنما هو وعي الذات بموضوعها.

الهوامش

¹ - François Rastier, Sémantique interprétative, édition, PUF, Paris, 1987, p.114.

² - عبد المجيد جعقة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2000، ص.60.

³ - François Rastier, Sémantique interprétative, édition, PUF, Paris, 1987, p.114.

⁴ - Ibid., p214-215.

⁵ - Ibid., p215.

⁶ - Voir, A. J. Greimas, Du Sens, édition, Seuil, Paris, 1970, p.13.

⁷ - Voir, A. J. Greimas, Du Sens, édition, Seuil, Paris, 1970, p.13.

⁸ - François Rastier, Sémantique interprétative, édition, PUF, Paris, 1987, p.217.

⁹ - Ibid., p217.

¹⁰ - Ibid., p.217.

¹¹ - Ibid., p.218.

¹² - Ibid., p.218.

¹³ - Ibid., p.218.

¹⁴ - بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة: محمد براءة وحسن بورقية، العين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص.61.

¹⁵ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الرابعة، 1996، ص.21.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص.21.

¹⁷ - محمد شوقي الزين، تأويلات وتحكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص.71.

¹⁸ - المرجع نفسه، ص.34.

¹⁹ - ينظر: هانز روبرت ياوس، علم التأويل الأدبي، حدوده ومفاهيمه، ترجمة: بسّم برسكة، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد، 3، 1988، بيروت لبنان، ص.54.

²⁰ - سامي أدهم، إبستمولوجيا المعنى والوجود، نقد التطورية، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، ص.13.